كيف يُشوِّهُ التاريخُ في أعين أبنائنا ؟؟(*)

دخل عليَّ ابني -وهو بعدُ لما يُكمل العاشرة من عمره- وفي عينه حيرة ، وفي قلبه رجفة، وفي يده كتاب التاريخ للصف الخامس الابتدائي ، وتساءل في مرارة : أبي:هل كان معاوية مسلماً؟ وهل كان عمرو بن العاص مسلماً؟ ولماذا قُتل عثمانُ بنُ عفان؟ وكيف؟ ومن قتله؟ وهل صحيح هذا الكلام؟ أليس هؤلاء من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ أليس هؤلاء من الذين دافعوا عن الرسول وحاربوا الكفار؟

ووجدتُ نفسي أمام مشاعرِ هذا الطفل الحائر واجماً تماماً. أقول : أمام مشاعره. نعم أمام مشاعره لا أمام أسئلته : فقد كان الفزعُ يُطل من عينيه ، والحيرةُ تتغشاه !!!

ولم أستطع أن أداري ما اعتراني من ألم ووجوم ، مما جعل الطفل الصغير

(*) نشرت في مجلة الأزهر سنة ١٩٧٤م.

يشعر بالندم على ما سبب لأبيه من آلام ، فيدير الحديثَ ناحيةً أخرى ، ويتهيأ للانسحاب من أمامي ، مضيفاً إلى ما كان يعانيه من حيرة وقلق مشاعر الندم على ما سبب لأبيه من ألم ؛ ولكني تماسكت وناديته سائلاً: ماذا تريد؟ وعم تسأل؟ ..

وتناولت منه كتاب التاريخ ، وأخذت أقرأ من ص ٧٧ ؛ فطالعني بها هذا العنوان :(الفتنة وتوحيد صفوف المسلمين بعدها) .. ..

وبدأتُ أحاول بكل ما أوتيته من قدرة على الشرح ، وبكل ما عرفته من فنون التربية وعلم النفس ، وطرق التدريس .. .. حاولتُ بكل ما استطعت أن أبسط له هذه المعلومات ، وأقدمَها له ميسَّرةً معلَّلةً بطريقة لا تصدم شعورَه ، ولا تشوه الصورة الناصعة ، التي رسمها في ذهنه وقلبه لأولئك الأبطال .. .. ورحت أسهب ، وأطنب ، وأسبب وأعلل .. .. وانصرف المسكين من أمامي يتكلف الابتسام ، ويظهرُ الاقتناع بما قلتُه ، ولكن صفاء عيني الطفل لم تستطع أن تكتم ما يمور في داخله.

ورحت أنا أسأل : من المسئول عن تشويه تاريخنا بهذه الصورة؟ ومن وراء هذا العرض الممسوخ لتاريخ ديننا ؟

قد يكون ما في هذا الكتاب له ظل من الحقيقة، وقد يمكن التعويل على شيء من هذه المرويات .

ولكن لماذا الإصرارعلى إبراز هذه الزوايا دون غيرها؟ لماذا تُعطى هذه الجوانب أكبر من حجمها ؟ بل لماذا الإصرار على تعليمها لأولادنا في هذه السن المبكرة؟ وهم لما يقدروا بعد على إدراك البواعث والملابسات والموازنات، ولما يستطيعوا بعد السيطرةَ على انفعالاتهم .

نعم لماذا الإصرارعلى تعليم هذا لأطفالنا بهذا التفصيل؟
ثم لماذا يكون هذا الأسلوب في التاريخ الإسلامي وحده؟
نعم . لماذا يكون هذا الأسلوب في التاريخ الإسلامي وحده ؟؟!!

لقد درس ابني في العام السابق في الصف الرابع تاريخَ الفراعنة ، ورأى فيه صورةً من أضاءوا الدنيا ، وبدّدوا ظلامَها بحضارتهم وعلمهم وعزتهم وأمجادهم ، فظلّ يتغنى بأحمس وأضرابه ، ويباهي بأنه من أصلٍ فرعوني!!

ألم يكن لدى الفراعنة فتنٌ؟ ألم تثر بينهم منازعاتٌ وإحن؟ فلماذا التاريخ الإسلامي وحده ؟ لماذا تاريخُ الفراعين يقدَّم لأبنائنا صافياً ناصعاً ؟ ولماذا تاريخُ الإسلام وحده يظهر مكدراً غائباً ؟

أهي صدفةٌ ؟ أم تدبيرٌ ؟!! إنه تدبيرٌ أحكمت حلقاته من قَبل. تدبيرٌ أحكمت حلقاتُه ، من يوم كُتب على هذا البلد أن يكون (القسيس دنلوب) مستشاراً لوزارة المعارف (التربية والتعليم)!! فقد شدَّدَ هذا المستشار قبضَته وطالت مدتُه ، حتى انطبعت بصماتُه وبقيت ظلالُه جاثمة. فزال ولما تزل آثارُه وفلسفته.

لقد كان وضع «دنلوب» مستشاراً لوزارة المعارف عن وعي وإدراك لمهمته، فقد عَلِم أساطينُ الاستعمار أنَّ قتل الشعوب بالرصاص يثيرها، ولكن قتلَها بتمزيق تاريخها، واجتثاث جذورها ، وتشكيكها في نفسها ومبادئها ، ونحو ذلك من الأساليب الماكرة التي لا تُطلق فيها رصاصةٌ ، ولا يُضرب فيها عصاً أو سوط ، أيسر وأسهل ، وفي الوقت نفسه أخطر .

وليس بعسير أن نستشهد بأقوال لكثيرٍ من دهاقين الاستعمار وقادته ، يصرحون فيها بأن التعليم ومناهجه من وسائلهم في قتل الشعوب ووأد مبادئها وعقائدها.

ولقد أدرك ذلك شاعرُ الهند الكبير «أكبر حسين» الملقب بلسان العصر: فقال بطريقته الساخرة اللاذعة ما ترجمته :« يالَبلادة فرعونَ الذي لم يصل تفكيرُه إلى تأسيس الكليات ، وإنشاء المدارس والمعاهد ، وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد !! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ، وسوءُ الأحدوثة في التاريخ ».

ويقول الشاعر محمد إقبال «إن التعليم (يعني على الطريقة الغربية) هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا

الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيمائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة من التراب ».

إن التعليم ليس عمليةً عشوائيةً تلقائية ، وليس مجرد معلوماتٍ وأفكار وآراء يُشحن بها ذهنُ التلميذ . ولكن التعليمَ في واقع الأمر يقوم على فلسفةٍ ومبادىءَ ذات خُطوط واضحة بيّنة، توضع المناهج، وتختارُ المعلومات ، وتنسق بحيث تعمِّق هذه الفلسفة ، وتقرر هذه المبادىء ، لا في الأذهان والعقول فحسب ، بل من قبلُ تجعلها تملأ القلوبَ وتسيطر على العواطف ، وتربي الاتجاهات ، وتخلق الاهتمامات التي تتفق مع هذه الفلسفة وتلك المبادىء.

فهل من فلسفة التعليم وأهدافه عندنا تشويه تاريخ الإسلام ورجاله ؟

إن من يطّلع على هذا الكتاب(التاريخ للصف الخامس الابتدائي) يعجب كيف كُتب وبأي روح ؟!!!. ويكفي أن نضع أمام المسئولين الحقائق الآتية بكل إيجاز وبدون تعليق :

(١) عقد الفصل الثاني بعنوان (الخلفاء الراشدون والفتوحات الإسلامية) من صفحة ١٧١-١٩١، وبه صفحتان خرائط ، فجُملة ما كُتب في الفصل كله ١٨ صفحة، ولك أن تعجب معي حين تعلم أن الحديث عن الفتنة احتل خمسَ صفحاتٍ ، أي نحو الثلث !! أليس من حق التلميذ الصغير أن يفزع وينزعج، حين يرى ثلثَ عهد الخلفاء الراشدين فتناً وصراعاً !! وأي رشد إذاً ؟ ؟

(٢) في صفحة ١٧٧ سطر ١٢ يقول :« بويع -عليُّ بنُ أبي طالب- بالخلافة، لأنه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوجُ ابنته فاطمة » كذا!! ويسأل التلميذ الصغير ببساطة: ألم يكن عليُّ بنُ أبي طالب ابنَ عمِّ الرسول ، وزوج ابنته يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. ؟ ؟

(٣) في صفحة ١٨١ سطر ١٤ « وبذلك أصبح معاويةُ خليفةً للمسلمين»، واتحد العربُ تحت قيادته» ماهذا ؟ «اتحد العرُب» فأين المسلمون من الفرس في المشرق؟ ومن البربر في المغرب ؟ ؟

(٤) في صفحة ١٨٢ سطر ٢ « كان ضعفُ دولتي الفرس والروم في عصر الخلافة الرشيدة مُشجعاً للعرب على غزو بلادهما»!! كذا ؟ خلافة رشيدة ويشجعُها ضعفُ جيرانها على أن تغزوهم !! فأين الرشد ؟ ويعلَّم هذا لأولادنا في الوقت الذي يتنادى فيه العالم بالدعوة إلى السلام ورعاية حقوق الضعفاء ، في هذا الوقت نفتري على الخلفاء الراشدين ونقول لأبنائنا :(إنهم استضعفوا جيرانهم فهجموا عليهم).

(٥) في صفحة ١٨٦ سطر ١٥ يقول وهو يتحدث عن سبب فتح مصر:«كما نبه عمرو بنُ العاص الخليفةَ إلى ثراء مصر ، وكثرة خيراتها» هكذا فتحٌ ونهبٌ ، حرب وسفك ، من أجل الثروة والخيرات !! وإني لأتساءل :من أين للمؤلف هذه المعلومات؟ أكشف عن نيات عمرٍو وعمرَ؟ أم استنتج ذلك من سيرتهما؟ أم وجده مسطوراً مصرحاً به مروياً عنهم في كتب التاريخ؟

بينما يغمز نيةَ عمرو وعمرَ هذه الغمزة ، يمر سريعاً على ما ثبت صراحةً ويقيناً من معاونة أهل مصر لعمرو وترحيبهم برجاله، وحسن استقبالهم للمسلمين(الدعاة) ولا أقول الفاتحين ، وإنقاذ عمرو وجنوده مصرَ وأهلَها من عسف الرومان وطغيانهم.

(٦) في صفحة ١٨٦ سطر ٦ وما بعده ، يذكر قصة عزل خالد بن الوليد بدون أن يقتضيها السياق ، بل يُقحمها إقحاماً، ويتركُنا في حيرة ، أهذا كتابٌ موجز من دروس التاريخ ، أم مطولٌ من مطولاته؟

(٧) في صفحة ١٧٤ سطر ٥ «اتسعت الدولةُ في عهده (يعني أبابكر رضي الله عنه) اتساعاً كبيراً على حساب دولتي الروم والفرس ».

انظر على حساب دولتي الروم والفرس ، واقرأ الصفحة كلها لترى أن العبارة مقحمة في السياق لا محل لها.

هذه مجرد نماذج من هذا الكتاب ، والكتاب موجود في كل يد مطبوع منه في هذا العام وحده أكثر من نصف مليون نسخة.

والكتاب أيضاً مجرد نموذج لما يدرس لأبنائنا ، فهناك مثله ، وأخطر منه

سنعود إلى كشفه في وقت قريب إن شاء الله.

وربما يقول قائل : ما ذنب المنهج والمؤلف ؟ وهذه هي حقائق التاريخ؟ وقد أقول: نعم ولكن تبقى أسئلة :

هل هذه هي الحقائق الوحيدة؟ وهل هذه هي السن المناسبة لدراستها ؟

وهل يتفق ذلك مع الفلسفة والمبادىء التي يقوم عليها التعليم والتربية في بلادنا ؟ هذا على فرض أنها حقائق.

ثم مرة ثانية لماذا تاريخ الإسلام وحده يكتب بهذه الصورة ؟ هل من سميع ؟